الجانين ، يستعملون فى استخراج المـــاء من البئر الوسائل التى لا تخفى على عاقل . وحينما نعرف أن كفار مكة يدعون هذه الآلهة العاجزة عجز البئر عن دفع المـــاء إلى العطشان ، ويذرون أحسن الخالقين . القادر على دفع الضر وجلب النفع ، الذى له الخلق والأمر ، باعترافهم أنفسهم ، فلا شك أنهم ينزلون منزلة ذلك الأحمق ، بل المجنون الذى يطلب من ماء البئر أن يتحول إلى كفه كى يطفىء غلته ، دون أن ينتفع بنعمة العقل فى اتخاذ الوسيلة لاستخراج المـــاء ، تلك الوسيلة التى يستعملها كل عاقل سواه . إن كفار مكة ينزلون هذه المنزلة ولا شك ، لأن المصطفى صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم ، ولأن الكتاب العزيز يتلى على مسامعهم ، آناء الليل وأطراف النهار . ولأن المسلمين حتى قبل الهجرة ، كان عددهم آخذا فى الازدياد فى إمكان هؤلاء أن يستفيدوا من نعمة العقل ، بأن يتحولوا إلى الطريق الصحيح الذى يسير فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، قائداً للمؤمنين ، كى ينتهوا إلى النتيجة الحسنة التى هم أحرص الناس على أن يصلوا إليها ، بدلا من أن يسيروا فى الطريق المسدود فى وجه الخير ، الطريق الموصل إلى أسوأ عاقبة ، إلى النار وبئس القرار . إنه إذا كان مصير باسط كفيه إلى المـــاء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، هو الموت الأكيد . وإلى ذلك أشار قوله تعالى : « وما هو ببالغه » فإن مصير الكافرين هو النار وبئس القرار . وإلى ذلك أشار قوله تعالى : « **وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال** » وإنه إذا كان وسيلة إنقاذ العطشان بسيطة ، ولا تحتاج إلى عبقرية ، إنها الرشاء الذى يتيح للعطشان أن يروى غلته ، وأن ينال من المـــاء العذب النمير ما شاء ، فإن كفار مكة يستطيعون أن يصلوا إلى النتيجة الصحيحة ذاتها ، بأن يهجروا طريق الضلال ، طريق عبادة الآلهة الذين لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا . وأن يسيروا فى طريق الحق ، الموصل إلى الجنة والنعيم المقيم . وذلك بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، ودعائه وحده عز وجل ، لأنه له وحده دون سواه الخلق والأمر . قال تعالى : « **له دعوة الحق ، والذين**

يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » .

ونتحول إلى الآية الكريمة التالية ، قال تعالى : « ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال » . إن أول ما يلفت الانتباه ، هو أن الآية الكريمة يتحقق فيها بدرجة ملحوظة الظاهرة التى تطبع السورة الكريمة بطابعها ، وهى ظاهرة الصفات المتقابلة ، أو ظاهرة التقابل فى الصفات . ويلاحظ ذلك بوضوح فى ثلاثة مواضع . السماوات والأرض . طوعاً وكرها . الغدو والآصال .

وبما أن السجود يعتبر أعلى مظاهر الخضوع لله رب العالمين ، فالمعروف أن الإنسان أقرب ما يكون إلى الله تعالى وهو ساجد ، وبما أن الآية الكريمة تريد أن تعبر عن خضوع السماوات والأرض لإرادته عز وجل وقهره ، فقد استعملت السجود الذى يمكن أنه يفهم منه منتهى إخلاص العبادة لله تعالى . كما يمكن أن يفهم منه الانقياد لله تعالى والخضوع له . ولو أننا نظرنا إلى السجود بهذين المعنيين وفق ترتيب السماوات والأرض فى الآية الكريمة ، لاستطعنا أن ننتهى إلى أن السجود بشأن الملائكة فى السماء يعنى العبادة والخضوع المطلق . فالمعروف أن الملائكة لا يعصون الله تعالى ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ويكون اختيار السجود من قبيل اختيار أهم أجزاء الشىء للدلالة عليه . فإذا تحولنا إلى الأرض وإلى سكانها من البشر الذين ينتظر منهم السجود دليلا على العبادة التى من أجلها خلقوا ، لتبينا أن هؤلاء البشر ينقسمون فريقين . مؤمنين وكافرين ، عابدين وملحدين . ولما كان هؤلاء البشر جميعاً يخضعون لإرادة الله تعالى الفعال لما يريد ، أما المؤمنون فإنهم يعبرون عن هذا الخضوع بالسجود ، إضافة إلى اعترافهم بأنهم إنما يسيرون فى هذه الحياة وفق إرادة الله تعالى المطلقة وعلمه التام ، الذى ليس للزمن علاقة به البتة ، فإن الكافرين لا يعبرون عن هذا الخضوع بالسجود لله رب العالمين ، ولا يعترفون بما يعترف به المؤمنون من كونهم يسيرون فى الحياة وفق إرادة الله تعالى وعلمه . والحقيقة أن هؤلاء الكافرين ومعبوديهم . كذلك يخضعون

لإرادة الله تعالى ، أردوا أم أبوا ، خضوعاً مطلقاً ، عبر عنه بالسجود كرها ، على غرار التعبير بالسجود طوعاً بشأن المؤمنين . وإن خضوع هؤلاء الكافرين ، لإرادة الله تعالى وسلطانه كرها ، وخضوع الآلهة التى يعبدون من دون الله تعالى كرها أو طوعاً ، ليتخذ الظل دليلا عليه . واللطيف أن الظل من أكثر الأشياء دلالة ومناسبة لكل من الطوع والكره . إن هذا الظل من مخلوقات الله تعالى . ومع أنه جماد ، فإنه يتجلى فيه الخضوع لله تعالى . إن شئت قلت طوعا ، لأنه ممتثل لإرادة الله تعالى دائماً . وإن شئت قلت كرها ، لأنه لا يستطيع أن يعصى الله تعالى . إن هذا الظل وليد ضياء واحد أو نور واحد[1] وهو لا يملك إلا أن يتحرك امتثالا لإرادة الله تعالى التى شاءت له أن يمتد ويتقلص . يفئ ويزول . بل إن طوع الظل وكرهه يلوحان فى حق الإنسان كذلك . إن الظل ملازم للإنسان وهذا معناه أن الإنسان سواء أكان مؤمنا أم كافرا ، ساجداً أم ملحدا ، فإن ظله تابع له ومقلد . وبما أن الإنسان هو صاحب الإرادة ، فهل لهذا الإنسان ، الذى يحق له أن يريد ، شىء من قدرة أو سلطة على الظل ؟ لا بطبيعة الحال . فسواء كان الإنسان مؤمناً أم كافراً ، فإن الظل مطيع لله تعالى . الذى أراد له أن يكون ملازماً للمخلوقات التى تبصرها العينان ، بما فى ذلك الإنسان ، سواء أكان ساجداً أم غير ساجد . مؤمناً أم غير مؤمن . إن على الإنسان الذى من أجله أنزل عز وجل القرآن الكريم ، على خاتم الأنبياء والمرسلين ، أن يتأمل هذا الظل الذى يلازمه . إنه قد يخيل إليه أن له عليه بعض سلطة بأن يتحرك مثلا أو يحرك بعض أجزاء جسمه كى يتحرك الظل . ولكن الحقيقة أن الإنسان ليس له سلطة فعليه على هذا الظل لأن تلك هى طبيعة الظل كما شاءت العناية الإلهية ، سواء فطن الإنسان لذلك أم لم يفطن . إنه لا يستطيع أن يطرد الظل عنه فى الضوء أو النور . كما أنه لا يستطيع أن يحمله على أن يأتى حينما لا يسمح الوقت بأن يكون للإنسان ظل . تماماً كما لا يستطيع

---

(١) فى كتابنا تأملات فى سورة الفرقان وقفنا ملياً عند قوله تعالى : « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل » ص ١١٢ - ١١٩ .

الإنسان أن يتحكم فى طبيعة ظله ، فى الغدو والآصال ، وقت الفىء ، أو الزوال . إن الطويل ينبغى أن يكون دائماً طويلا ، والقصير ينبغى أن يكون دائماً قصيراً . وهكذا .

وإذا كان الإنسان على يقين بأنه لا سلطة له على ظله ، وبأنه — وكذلك ظله — ساجد لله تعالى ، طوعاً أو كرها ، فما الذى يجعل هذا الإنسان يعتقد أن المخلوقات لله تعالى ، والتى يعبدها من دونه عز وجل ، خارجة عن دائرة الخضوع لله تعالى وقهره ؟ إنه حمق الإنسان وجنونه ، فواجب كفار مكه ومن شاكلهم ، أن يهجروا عبادة الآلهة من دون الله تعالى ، والتى لا تملك نفعاً ولا ضراً ولا حياة ولا نشورا ولا موتا . وأن يتحولوا إلى عبادة الله تعالى الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن كفواً أحد .

والغدو جمع الغدوة ، بضم الغين صدر النهار . والآصال جمع الأصل ، بضمتين ، والأصل جمع الأصيل ، وهو الوقت بين العصر ومغرب الشمس . وإنما كان اختيار هذين الوقتين بالذات ، لأن الظل أطول ما يكون فى أثنائهما . ولأن اتجاه هذا نحو التقلص صباحاً ، مخالف لاتجاه ذلك نحو الأمتداد مساء . وهذا نافع فى مجال المقابلة التى تتسم بها السورة الكريمة .

لقد جاء فى سورة النحل الإشارة إلى خضوع الظل لإرادته عز وجل ، تماما كما جاءت الإشارة فى آية سورة الرعد . فواجب الإنسان الذى تميز بالعقل والإرادة ، أن يتمثل فيه الخضوع لله تعالى ، وقمة الخضوع السجود ، بأكثر مما يتمثل فيما سواه ممن حرم العقل والإرادة . أما إذا حدث العكس فالذنب ذنب الإنسان والمسئول هو وحده دون سواه . جاء فى سورة النحل قوله تعالى : « **أو لم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون . ولله يسجد ما فى السماوات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لايستكبرون . يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون** »(١) .

---

(١) الآيات : ٤٨ — ٥٠ .

ونتحول إلى الآية الكريمة التالية ، وهى آخر آيات القسم ، قال تعالى : « قل من رب السماوات والأرض قل الله ، قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً . قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور . أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم . قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » .

إن الآية الكريمة تخاطب المصطفى صلى الله عليه وسلم وتطلب منه أن يسأل كفار مكة عن رب السماوات والأرض . والمعروف أن هؤلاء الكفار يعترفون بوجود الله تعالى ، وبأنه خالق السماوات والأرض . قال تعالى فى سورة العنكبوت[1] : «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون » . وقال : « قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون »[2] . وقال : « قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله »[3] . وكأن هؤلاء حينما يسألون عما يعرفون إنما ينبهون إلى ما ينبغى أن يترتب على العلم الصحيح من تصرف صحيح . إن لديهم العلم الصحيح إذ يعترفون بأن الله سبحانه وتعالى هو رب السماوات والأرض ، فينبغى أن يترتب على العلم الصحيح عمل صحيح . وإذا كان هذا السؤال قادراً على جذب انتباه المسئولين إلى هذه القضية كى يعيدوا النظر فى موقفهم منها ، فإن الجواب « قل الله » قادر على تنبيههم إلى ضرورة موافقة فعلهم لاعترافهم الصحيح . والمعروف أن كفار مكة لا يرتبون على هذا الاعتراف ما ينبغى أن يرتب عليه من عبادته عز وجل وحده لا شريك له . فقد جاء فى سورة الزمر[4] ، القول على لسانهم : « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .

والآية الكريمة تبين طبيعة هذه الآلهة العاجزة المعبودة من دون الله تعالى ،

---

(١) آية : ٦١ .

(٢) المؤمنون : ٨٦ ، ٨٧ .

(٣) سبأ : ٢٤ . وإن لم يقولوا ذلك فلا جواب غيره .

(٤) آية : ٣ .

وذلك فى مقابل القدرة المطلقة للفعال لما يريد ، والتى أفاض فى الحديث عنها القسم . قال تعالى : « قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً » .

ويلاحظ أننا بصدد استفهام إنكارى حيث ينكر على القوم عبادة غير الله تعالى . كما يلاحظ أن حرف الفاء من « قل أفاتخذتم » ينبه إلى أن الإنكار منصب على الموقف الخاطىء من اتخاذ الآلهة ، المترتب على الاعتراف الصحيح . يقول الزمخشرى(١) : « أبعد أن علمتوه رب السماوات والأرض اتخذتم من دونه أولياء فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد دون علمكم وإقراركم سبب الإشراك » . وكأن القوم ينبهون إلى ضرورة الانتفاع من نعم الله تعالى عليهم ، وفى مقدمتها العقل والإرادة ، كى يهجروا الآلهة من دون الله تعالى ، ويغالبوا أهواء أنفسهم والتقاليد العتيقة البالية التى ورثوها من قبل الآباء والأجداد . وأى دليل أكبر ، على تعطيل القوم لنعم الله تعالى ، وأى دليل أكبر على ضلالهم المبين ، من عبادتهم هذه الأصنام العاجزة عن جلب نفع لها أو دفع ضر ، فمن باب أولى أن تكون أشد عجزاً فى حق الآخرين . ويبلغ العجب منتهاه حينما يكون هذا المعبود المخلوق لله تعالى ، من صنع الإنسان العابد ، كأن يكون الإله المزعوم حجراً أو خشباً أو عجوة . بحيث إن العابد حينما يعضه الجوع ، لا يبالى أن يتخذ من إلهه الحجر ثالثة الأثافى ، ومن الخشب وقوداً لناره ، ومن العجوة وجبة شهية يزدرد إلهه المزعوم فيها ازدرادا .

هل هذه الآلهة العاجزة خليقة بأن تتخذ أولياء ؟ لا بطبيعة الحال . ولكن ما العمل بشأن الذين يعطلون نعم الله تعالى عليهم ويبنون على الوسائل ما لا يرتب عليها ولا يوافقها .

ويلاحظ أن السياق هنا يقدم النفع على الضر ، لأن الحديث يتعلق بذوات الآلهة ، وفيها من يعقل . والمعروف أن كل صاحب عقل ، أقرب

---

(١) الكشاف : ٢ - ١٦٣ .

إلى ذهنه وأحب إلى نفسه جلب النفع . وإن هؤلاء الكفار ، حينما لا يرتبون النتائج الصحيحة على الأسباب ، بينما توجد كل الأسباب المؤدية إلى النتائج الصحيحة من قرآن وحديث وفئة مؤمنة بقيادة المصطفى صلى الله عليه وسلم . فما أحرى هؤلاء أن ينبهوا إلى ضلال الكفر الذى هم فيه ، وإلى نور الإيمان الذى ينبغى أن يتحولوا إليه ، كى تنداح دائرة النور ، وكى يزداد عدد المسلمين . فمن أى الزوايا ينبه القوم إلى الضلال الذى هم سادرون فيه ؟ من زاوية السؤال الذى يشتم منه الإنكار على غرار سابقه ، والذى يتضمن إيقافهم على حقيقة العمى الذى حل بهم ، بينما المؤمنون بمثابة المبصرين ، وعلى حقيقة الظلام الذى يتخبطون فيه ، بينما المؤمنون يهديهم ربهم بنور إيمانهم . ويلاحظ أن أحد أقسام السورة سيتحدث عن المبصرين وعن العمى ، عن المؤمنين وعن الكافرين .

وهذا السؤال يوجه إلى القوم عن طريق المصطفى صلى الله عليه وسلم ، على غرار سابقه : «**قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور**» وإن الجواب معروف بطبيعة الحال ، يعرفه الكافرون وسواهم ، وهم الذين يعترفون بأن الله تعالى هو رب السماوات والأرض ، ويلاحظ أن الأعمى يقدم على البصير ، والظلمات تقدم على النور ، لأن الهدف هو لفت انتباه الذين يعنيهم السياق فى المقام الأول ، وهم كفار مكة ، إلى الأخطاء التى هم متورطون فيها ، كما يلاحظ أن الظلمات بالذات جاءت فى صيغة الجمع ، بينما جاء النور فى صيغة المفرد . وهذا شىء طبيعى . لأن طرق الضلال التى تغشيها الظلمات كثيرة فى حقيقتها ، ولا يحتاج سالكها إلى أى مجهود لكشفها . ولأن طريق الحق الذى يحف به النور ، واحد فى حقيقته . إن طرق الضلال ما أشد تنوعها . وإن طريق الحق ما أوضحه ، وإلى ذلك نبهت الآية الكريمة إذ جمعت الظلمات وأفردت النور ، وإلى ذلك أشار الحديث الشريف الذى يشير إلى عدد الفرق المنتسبة إلى الإسلام والتى تزيد على السبعين وكلها فى النار بينما هنالك فرقة واحدة هى الناجية[1] وحينما

---

(١) انظر على سبيل المثال شرح الطحاوية ص ٤٤١ طبع دار المعارف تحقيق أحمد محمد شاكر .

نتبين أن من العلماء قديماً من أحصى من الفرق التى ابتعدت عن الطريق الصحيح ما يزيد على السبعين ، وأن ثمة العديد من الفرق التى استمرت بعد ذلك فى ابتعادها ، فإن من الجائز أن نفهم من ذكر الرقم سبعين فى الحديث الشريف أن المراد تنبيه كل إنسان بأن عليه أن يسعى جاهداً بأن يكون من الفرقة الناجية التى بينها الرسول الكريم بأنها التى تعتصم بالقرآن الكريم وبالسنة النبوية المطهرة . هذا هو طريق النور ، وهذا هو طريق المؤمنين المبصرين .

وإذا كان الحديث قد توجه إلى الكافرين مباشرة ، فإنه يتحول بعد ذلك مستعملا ضمير الغائبين . وكأن فى هذا التحول تعبيراً عن غضب الله تعالى عليهم وهوانهم . قال تعالى : « **أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم . قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار** » .

وما دام أن القوم يعترفون بأن الله تعالى هو رب السماوات والأرض ، فلماذا لا يفردونه عز وجل بالعبادة ؟ ولماذا يشركون معه آلهة أخرى ؟ أم أنهم جعلوا هذه الآلهة شركاء لله تعالى فى العبادة لأنهم خلقوا فى هذا الكون أشياء أشبهت خلق الله تعالى فاختلط عليهم خلق الآلهة المدعاة بخلقه جل وعلا ولهذا عبدوهم مع الله تعالى ؟ قل يا محمد إن الله تعالى هو خالق كل شىء . ونستطيع أن نفهم أن هذا هو اعتقاد كفار مكة بأن هذه الآلهة لم تخلق شيئاً ، لأن التركيب هنا على غرار التركيب فى صدر الآية « قل من رب السماوات والأرض قل الله » وقد لاحظنا أن كفار مكة يعترفون بأن الله هو رب السماوات والأرض ، فينبغى أن يكون الاعتراف شاملا المخلوقات فى السماوات والأرض . وبما أنهم يعترفون بأن الله تعالى هو المتفرد بالخلق والأمر . فينبغى أن يفرد بالعبادة . وإلى ذلك أشار عجز الآية الكريمة « قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار » . إنه عز وجل هو خالق كل شىء ومدبره والمهيمن عليه . ما الذى دها كفار مكة ومن فى حكمهم حتى يتحولوا عن عبادة الله تعالى إلى الآلهة العاجزة عن أن تجلب لنفسها نفعاً ، أو تدفع ضراً ، فضلا عن فعل ذلك فى حق الآخرين .

ولا يقف العجب عند حد حينما تكون بعض هذه الآلهة مصنوعة بيد هذا الإنسان ! قال تعالى: « قل من رب السماوات والأرض قل الله . قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا . قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور . أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شيء ، وهو الواحد القهار » .

* * *

القسم الخامس

قال تعالى: « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابيا ، ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أومتاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل . فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض . كذلك يضرب الله الأمثال » .

إن هذه الآية الكريمة التى تشير إلى ضرب الله تعالى الأمثال ، بقصد التفكر والتدبر ، تسير فى نظمها وفق الطابع الغالب على آيات السورة الكريمة ، من اشتمالها على الصفات المتقابلة . ويكفى أن يقال فى هذا الصدد إننا بصدد مثلين ، أحدهما مائى والآخر نارى . ومعروف أن طبيعة الماء تخالف طبيعة النار تماماً . كما أننا بصدد الحق والباطل . وبصدد الحلية والمتاع . وبصدد الذى يذهب جفاء من الزبد ونحوه والذى يمكث فى الأرض مما ينفع الناس . كما أننا من الجائز أن نقول : إن السماء والأرض مجتمعتان فى سياق الآية الكريمة . فالمعروف أن الآية الكريمة حينما يجىء فيها القول : « أنزل من السماء ماء » فمعنى هذا أن فى الكلام حذفاً أو ما يشبه الحذف . إذ الماء إنما ينزل من السماء إلى الأرض . وإنما سكت عن الأرض لأنها تتكون من ماء ويابس . والذى يتطلبه السياق هنا هو يابس الأرض الذى عبر عنه بالأودية التى سالت .

إن الآية الكريمة تتحدث عن الماء النازل من السماء ، من زاوية بعينها ، تخدم الغرض فى إحقاق الحق كى يتبع ، وفى إزهاق الباطل كى يجتنب ويتحاشى . أما هذه الزاوية فهى الأودية التى تسيل بالماء الذى تجمع فيها من الجبال والشعاب . إن هذه الأودية تسيل بالماء الذى يوافق طبيعتها من اتساع أو ضيق ، كبر أو صغر . فلا شك أن ما يحمله الوادى الكبير من السيل ، يختلف فى كميته عما يحمله الوادى الصغير المجاور .

إن هذه اللفظة الكريمة « بقدرها » التى تشير إلى طاقات الأودية المختلفة فى حمل المـاء ، ينبغى أن يكون وراءها هدف بعيد ترمى إليه . وسنشير إليه بإذنه تعالى مستقبلا فى نظرتنا الثانية إلى الآية الكريمة من زاوية الهدف والغاية .

« فإن قلت لم نكرت الأودية . قلت : لأن المطر لا يأتى إلا على طريق المناوبة بين البقاع ، فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض »(١) . وهذه الأودية ، المختلفة حجماً ، وبالتالى المختلفة فى كمية المـاء ، حينما تسيل ، فإنه يطفو عليها الزبد وغثاء السيل ، وانظر إلى التعبير القرآنى البديع « فاحتمل السيل زبداً رابيا » إن السيل يتكون فى جوهره من الماء العذب الصالح للإنسان ، ومن باب أولى سواه . ومع ذلك يحتمل فوق ظهره ، أراد أم لم يرد ، طوعاً أو كرهاً ، أنواع القذى . هكذا شاءت إرادة الله تعالى أن يكون القذى ملازما لماء السيل ، لا بل أن يكون أنواع القذى هى الطافية فيه على السطح . أما الماء العذب النافع الصالح للشرب فضلا عما سواه ، فإنه يكون تحت كل ذلك . أى أن المـاء النافع يكون مستوراً بالزبد الذى يرغم المـاء على حمله ، والذى لا يستطيع المـاء العذب منه فكاكا .

ويأخذ هذا الزبد المحمول عجزاً ، الراكب ابتلاء ، فى النماء والزيادة ، نتيجة طبيعية وثمرة غضة للاجتهاد النامى للماء . والعجيب فى أمر هذا الملازم الثقيل ، والضيف غير المحتشم ، أنه يرتبط بنماء السيل ونقصانه . إن السيل ما دام قوياً فى عنفوانه فالزبد بمثابة الظل له . هو كذلك فى قوته وعنفوانه . والعكس صحيح .

ألا نتبين من هذه الصورة الرائعة ، أن المـاء هو الذى يستحق أن أن يكون الأعلى مكاناً لعلو مكانته . وأن الزبد هو الذى يستحق أن يكون الأدنى مكاناً لدنو مكانته ، على حد قول المتنبى(٢) :

---

(١) الكشاف : ٢ - ١٦٣ .

(٢) ديوان أبى الطيب بشرح العكبرى : ٣ - ٧٢ .

ولـو لم يحل إلا ذو محـــل   تعالى الجيش وانحط القتـــام

ولـكن هذا الشق الأول من المثل – وكذلك الشق الثانى – يريد أن ينبه إلى أن هذا النوع من الابتلاء ، إنما يتم بعلم الله تعالى وإرادته . فهل يستطيع المـــاء أن يكون فوق الزبد لا تحته ؟ لا يستطيع . وهل يستطيع المـــاء أن يتخلص من الزبد ؟ لا يستطيع . ويلاحظ أن الزبد ملازم للماء العذب المتحرك .

فإذا تحولنا إلى الشق الثانى من المثل تبين أنه يتعلق هذه المرة بالنار ، وبذلك يتحقق التقابل فى الصفات الذى يعتبر من أهم سمات هذه السورة الكريمة . وهذا هو الذى يخص المثل النارى . قال تعالى: « ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله » .

وأول ما يلاحظ هو أن المثلين يجمعان بين شيئين يتعلقان ، على نحو من الأنحاء ، بالصفات المتقابلة . أما هذان الشيئان فهما العمومية والخصوصية . العمومية لأن السيل يمكن أن يراه كل واحد . ولا دخل لمخلوق فيه . والخصوصية لأن ما يوقد عليه الصاغة فى النار يصح أن يراه رأى العين بعض الناس ، وإن كان لا يغيب بطبيعة الحال عن ذهن أى منهم . يضاف إلى ذلك أن كلا من المثلين أكثر ارتباطاً بواحدة من المجموعتين البدوية والحضرية ، المتنقلة والمستقرة ، الرعوية والزراعية وما فى حكمها ، اللتين يتكون منهما المجتمع آنذاك . إن أهل البادية المتنقلين أقرب إلى أن يروا تلك الأودية المختلفة ، حينما تسيل بكمياتها المختلفة من المياه . وإن أهل الحضر المستقرين ، والمشتغلين بالصناعات ، أقرب إلى أن يقفوا على عملية الإيقاد على المعادن فى النار ويمارسوها . تلك العملية التى ينفى بواسطتها خبث المعادن ووسخها عن جوهرها ولبها . قال تعالى: « ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله » .

وإن القول « ومما يوقدون عليه فى النار » ينبهنا إلى الطريقة التى يلجأ إليها الصاغة حينما يريدون أن ينقوا المعدن مما علق به من وسخ وقذى .

إنهم يضعون المعدن فى بوتقة ، ويضعون البوتقة فى النار . فهم يوقدون على المعدن وهو فى داخل النار . إننا بصدد وصف دقيق للعملية التى يمارسها الصاغة منذ الأزل لتنقية المعادن . ويبدو دقة الوصف حينما نتحول إلى عملية أخرى إشار إليها القرآن الكريم مستعملا حرف جر آخر هو « على » وليس « فى » إشارة إلى كون هذه العملية مغايرة طبيعة وغاية للعملية الأولى. وهذه هى عملية صنع الآجر الذى تلامس النار طينه من جهاته الخارجية بقصد أن يكون أكثر قوة وأشد صلابة . جاء فى سورة القصص(١)قوله تعالى : « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين».

وإذا كان الزبد يطفو على المـــاء الجوهر ، فإن زبد المعادن الموقد عليها فى النار يطفو عليها وهى جوهر . وإذا كان زبد المـــاء لا قيمة له ، فإن زبد المعادن لا قيمة له كذلك . وقد نص السياق على أهم سببين لتنقية المعادن ، وذلك بالإشارة إلى الصفتين اللتين يصح أن يقال عنهما إنهما فى حق المعادن متقابلتان لاختلافهما عادة فى طبيعة المعدن وفى طريقة صنعه وفى الغاية التى يصاغ من أجلها . أما الصفتان فهما الحلية والمتاع . ونستطيع أن نفهم أن اتخاذ الحلية من أجل النساء أساساً . ويرتبط بذلك معدنا الذهب والفضة وما فى حكمهما . كما نستطيع أن نفهم أن اتخاذ المتاع من أوان وأدوات وآلات ، يتعلق أكثر بالرجال ، ويرتبط بذلك معدنا النحاس والحديد وما فى حكمهما .

إن المـــاء والمعدن هما الجوهر . وإن القذى والوسخ الطافى بحقهما الزبد . إن النافع والمفيد هو المـــاء والمعدن . وإن غير النافع وغير المفيد هو الزبد . ومع ذلك فإن الزبد هو الذى يطفو فينبغى إزالته . لقد أشارت الآية الكريمة بعد ذلك إلى هذين المثلين ، المائى والنارى ، دليلا على الحق والباطل . كما أشارت إلى ما ينبغى عمله تجاه الزبد الذى قد يطول طفوه .

---

(١) آية : ٣٨ .

وهذه هى الإشارة إلى المثلين . قال تعالى: « **كذلك يضرب الله الحق والباطل** » . والمعنى فى مثل تلك الطريقة التقريبية يضرب الله تعالى مثل الحق ومثل الباطل . وهذا معناه أننا بحاجة إلى أن نقف ملياً عند المراد بالحق والباطل ، فى ضوء العلم بموقف كفار مكة ، أصحاب الصول والطول من القرآن الحكيم والرسول العظيم والفئة المؤمنة القليلة العدد أول الأمر والتى كانت تخاف أن يتخطفها الناس من حولها .

وهذه هى الإشارة إلى نهاية الباطل فى صراعه مع الحق . وإلى ما ينبغى عمله . قال تعالى: « **فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض** ». إن لفظة جفاء والتى جاءت حالا كما يقول الزجاج(١) بمعنى مطرحاً جانباً مقذوفاً به ملقى بعيداً ، تصور نهاية الزبد الذى طفا ، ربما لفترة طويلة ، فوق الماء وفوق المعادن . إن مصير زبد الماء أن يتفرق ويتمزق وأن يتركه الماء على جنبات الوادى ويعلق بأصول الأشجار وتنسفه الرياح ، وأن تغادر البقية الباقية منه أخيراً على الأرض ، بعد أن يكون الماء قد بلغ منتهى همه . وإن مصير زبد المعادن أن يتصيده الصائغ بوسائله كى يرمى به خارج البوتقة تباعاً ، حتى لا تبقى منه بقية باقية . يقال : جفأ الوادى غثاءه إذا رمى بالزبد والقذى . وجفأت القدر إذا رمت بزبدها عند الغليان(٢) وتأمل جملة « يذهب » التى تسند الفعل إلى الزبد « فأما الزبد فيذهب جفاء » وكأن الزبد ليس له إلا أن يذهب فى هذه الطريقة. فهو من ناحية مرغم لأنه يرمى به . وهو من ناحية أخرى كأنه يلوح مختاراً فى ذهابه حيث قد أسند السياق الفعل إليه . فعلى الباطل أن يفهم ، عن طريق أصحابه بطبية الحال ، أن هذه هى نهايته ، فعليه أن ينتهى إليها اختياراً قبل أن يرغم عليها اضطرارا .

إن كون الزبد طافياً فوق الماء والمعدن ، وكون هذا الطفو مرتبطاً

---

(١) اللسان « جفأ » وانظر البحر المحيط : ٥ - ٣٨١ .

(٢) اللسان « جفأ » .

بحركة كل من الماء الصالح والمعدن النافع ، معناه أن هذه هى طبيعة العلاقة بين الحق والباطل ، الخير والشر . حركة صراع دائم . وربما يطول هذا الصراع ، وربما يكون للباطل جولة أو جولات . ولكن النهاية دائماً فى صالح الحق والخير تماماً كما كانت فى صالح الماء والمعدن .

وإن عجز الآية الكريمة « كذلك يضرب الله الأمثال » أى « كما مثل هذا المثل للإيمان والكفر ، كذلك يمثل الأمثال »(١) يشير إلى أكثر من مثل . فقد جاءت الإشارة فى الآية الكريمة إلى المثل المائى والمثل النارى .

كما جاءت الإشارة إلى الحق والباطل فى قوله تعالى : « **كذلك يضرب الله الحق والباطل** » ومعناه أن المثل ذا الشقين أو المثلين المائى والنارى ، إنما ضربا من أجل الحق والباطل . فينبغى إذن أن نأخذ العظة والعبرة من صراع الباطل والشر مع الحق والخير ، والتى انتهت — أو تنتهى حتما — بانتصار الحق والخير . وهذا معناه أننا بحاجة إلى أن ننظر إلى الآية الكريمة مرة أخرى من زاوية الهدف الذى ترمى إليه ، فى إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، من زاوية العبرة التى يرمى إليها عجز الآية الكريمة فى قوله تعالى : « **كذلك يضرب الله الأمثال** » فإلى النظرة الثانية من زاوية الهدف والغاية ، بعد النظرة الأولى من زاوية الآلة والوسيلة .

إن الآية الكريمة تذكر الحق والباطل فى القول « كذلك يضرب الله الحق والباطل » ومعناه . كذلك يبين الله تعالى مثل الحق ومثل الباطل . وحينما تشير إلى المثل ، بل الأمثال ، صراحة ، بقصد أخذ العظة والعبرة منها فى القول « كذلك يضرب الله الأمثال » فإن ذلك معناه أننا بحاجة إلى أن نقف عند الحق الذى رمز إليه بالماء وبالمعدن . وعلى الباطل الذى رمز إليه بالزبد . إن الملابسات التى أحاطت بنزول القرآن الكريم ، والمعانى التى تعرض لها هذه السورة المكية ، ومظاهر الصراع بين الفئة المؤمنة

---

(١) تفسير الطبرى : ١٣ - ٩٠ .

بقيادة المصطفى صلى الله عليه وسلم الذى أنزل الله تعالى عليه القرآن الحكيم ، وبين الفئة الكافرة التى تكذب الرسول وتنكر القرآن ويوم القيامة ، وتجعل لله تعـالى شركاء الجن والإنس . إن كل ذلك يجعلنا قادرين على أن نفهم أن المراد بالحق هو هذا الدين الذى رضى الله تعالى لعباده ، والذى يعتبر القرآن الكريم معجزته الكبرى الخالدة ، وأن المراد بالباطل هو الشرك وتلك الشكوك والأباطيل والترهات التى يثيرها خصوم هذا الدين .

ومما يجعلنا نربط بقوة بين كون المراد بالحق فى الآية الكريمة هو القرآن الكريم فى المقام الأول ، باعتباره معجزة الإسلام الكبرى الخالدة ، هو أن كلا من القرآن الكريم والمـاء ، اللذين أشارت إليهما الآية الكريمة ، بينهما أكثر من علاقة . المـاء غذاء الأبدان . والقرآن الكريم غذاء الأرواح . ومعروف أن الإنسان جسد وروح ، وأن روحه بحاجة إلى غذائها حاجة الجسم إلى غذائه ، إن لم تكن أشد حاجة . المـاء ينزل بقدر من السماء بإرادة مالك الملك « **وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون** »(١) والقرآن الكريم ينزل بإرادة مالك الملك، من السماء بقدر ، بواسطة جبريل عليه السلام ، إلى أن عاد بعد نزوله كاملا على المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى ذات الصورة التى كان عليها فى السماوات العلى .

وإننا فى أثناء دراستنا المتأملة لسورة الفرقان(٢) تبينا أن السياق أثناء حديثه عن مجموعة من الآيات الدالة على قدرة الله تعالى ، قد نظر إليها من زاوية كونها ماء ، سواء أكانت ماء للأبدان ، ويأتى المـاء الفرات على رأس القائمة ، أم ماء للأرواح ، ويراد به القرآن الكريم الذى نزل على خير خلق الله تعالى كلهم ، أم ماء يخرج من بين الصلب والترائب ، يتكون منه الإنسان . إن السياق جمع بين هذه المظاهر من زاوية علاقتها بالمـاء . وإن

---

(١) المؤمنون آية : ١٨ .

(٢) ص ١٢٤ فما بعدها .

السياق تحدث عن معجزة الإسلام الكبرى الخالدة ، أعنى القرآن الكريم ، من زاوية كونه ماء للأرواح وغذاءً.

ولما كان موقف الناس من القرآن الكريم مختلفاً ، وكانت أفئدتهم تتفاوت صفاء وكدرا ، فى حق الذكر الحكيم ، والإسلام العظيم والرسول الكريم ، وتختلف مستوياتها فى القدرة على الفهم والاستيعاب والانتفاع ، فى الإمكان أن يفهم لفظ القدر فى قوله تعالى: «أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها » فى ضوء تفاوت تلك القلوب قدرة على الاستيعاب والانتفاع ، فنذهب — كما قلنا — إلى أن المراد بشأن الأودية أنها تتفاوت بسبب اختلاف أحجامها فى كمية الماء التى يطيق كل واد استيعابها . أما وقد تبينت العلاقة بين الأودية والقلوب ، وظهر الهدف من ذكر الماء والزبد بشأن الأودية ، فالماء يراد به دين الإسلام الحق الذى بعث من أجله الرسول الكريم ، وأنزل عليه القرآن الحكيم . والزبد يراد به الباطل وما يثيره المشركون حول هذا الدين من شكوك وريب . ولما كان هذا المثل مائياً ، وكان الطابع الغالب على السورة الكريمة أن تذكر الصفات المتقابلة ، وكان ما يقابل الماء النار ، لذلك نتبين أن السياق قد تحول إلى هذا المثل النارى ، من قبيل تداعى المعانى بالتضاد . إن أهل الحضر يفهمون المرمى البعيد من الشق الثانى من المثل ، على غرار فهم سكان البادية المرمى البعيد من الشق الأول المائى . قال تعالى : « ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أومتاع زبد مثله » إن ما قيل عن الماء يقال عن المعدن . وما قيل عن الزبد هنالك يقال هنا . ولابن كثير فى تفسيره اجتهاد لطيف فى هذا الشأن يقول(١): « أنزل من السماء ماء أى مطرا. فسالت أودية بقدرها . أى أخذ كل واحد بحسبه فهذا كبير وسع كثيراً من الماء . وهذا صغير فوسع بقدره . وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها . فمنها ما يسع علماً كثيراً . ومنها ما لا يتسع للكثير من العلوم بل يضيق عنها . . . وقد ضرب سبحانه وتعالى فى أول سورة البقرة(٢) للمنافقين

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ - ٥٠٨ وللإحاطة فقد أكملنا الآيات .

(٢) آيات : ١٧ - ٢٠ .

مثلين ، نارياً ومائياً ، وهما قوله : « مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمى فهم لا يرجعون » ثم قال : « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه . وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم . إن الله على كل شىء قدير » وهكذا ضرب للكافرين فى سورة النور مثلين ، أحدهما قوله : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب »(١). والسراب إنما يكون فى شدة الحر ... ثم قال تعالى فى المثل الآخر : « أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : « إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا . وأصابت طائفة منها أخرى ، إنما هى قيعان ، لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ . فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما بعثنى ونفع به فعلم وعمل . ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به . فهذا مثل مائى . وقال فى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن همام بن منبه . قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التى يقعن فى النار يقعن فيها وجعل

---

(١) آية : ٣٩ - ٤٠ .

يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها . قال فذلكم مثلى ومثلكم أنا آخذ بحجزكم(١) عن النار هلم عن النار فتغلبونى فتقتحمون فيها . وأخرجاه فى الصحيحين أيضاً، فهذا مثل نارى » .

أما وقد تبينا المراد بالحق وأن مصيره أن ينتصر . والمراد بالباطل وأن مصيره أن ينهزم . فمعنى هذا أننا بصدد تسلية غير مباشرة للرسول الكريم وللفئة المؤمنة القليلة العدد آنذاك . ومثل هذه الاستنتاجات تجعلنا نميل مع القائلين بكون هذه السورة الكريمة فى مجموعها من المكى من القرآن ، لأن المؤمنين قبل الهجرة ، أمس الناس حاجة لتثبيت الفؤاد والتسلية . والله تعالى أعلم .

---

(١) الحجزة ، بضم الحاء وسكون الجيم معقد الإزار ومن السراويل موضع التكة .

القسم السادس

قال تعالى : « للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به . أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد . أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق. والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » .

إن أول ما يلفت الانتباه تجاه الآية الكريمة الأولى « للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به ، أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد » . أنها فى صياغتها تسير وفق الطابع العام لآيات السورة الكريمة من الجمع فى نسق بين الصفات المتقابلة . وهانحن أولاء فى هذه الآية الكريمة ، تجاه الصنفين الطبيعيين من الناس ، الذين استجابوا لربهم والذين لم يستجيبوا له جل وعلا . ويلاحظ أن الآيات الكريمة التالية تسير وفق تقسيم الآية الأولى الناس إلى هذين الفريقين ، كما يلاحظ أن القسم الرابع من قبل قد نص على هذين الفريقين كذلك ، خاصة وأنه يصف المؤمنين بأنهم مبصرون والمشركين بأنهم عمى ، وذلك فى قوله تعالى : «قل هل يستوى الأعمى والبصير» ويلاحظ بشأن هذا القسم أن الآية الكريمة الثانية تشير إلى هذين الفريقين وتنص على صفة العمى بشأن الذى لا يعلم أن القرآن الكريم قد أنزل من الله تعالى أو الذى

لا يريد أن يعلم . وتفيض الآيات بعد ذلك فى ذكر أهم صفات المبصرين وأهم صفات غير المبصرين .

إن الفعل استجاب بمعنى أجاب(١)فى قوله تعالى : « **للذين استجابوا لربهم الحسنى** » فالآية الكريمة تبدأ بالإشارة إلى ثواب هؤلاء . وفى سبيل إعلان امتياز القوم واختصاصهم بالمنزلة العالية الرفيعة ، كانت صياغة الجزئية الخاصة بالمتقين المحسنين ، تختلف عن صياغة الجزئية الخاصة بالكافرين المجرمين . لقد ابتدأت الآية الكريمة بالنص على الذين استجابوا لربهم . وموقع الجار والمجرور خبر مقدم . ثم جاء المبتدأ المؤخر ، وهو لفظ «الحسنى» بينما ابتدأ الحديث بعد ذلك بالمجرمين الذين لم يستجيبوا لربهم فى طريقة مغايرة « والذين لم يستجيبوا له » فابتدأت الجزئية بالمبتدأ .

إن الآية الكريمة تتحدث عما أعد يوم القيامة للمحسنين من ثواب ، وللمسيئين من عقاب . أما المحسنون فقد جاء عنهم القول « **للذين استجابوا لربهم الحسنى** » وكما قال القرطبى(٢)فى تفسير الحسنى « لأنها فى نهاية الحسن» . فهؤلاء الذين استجابوا لربهم فى الدنيا ، بامتثال الأوامر واجتناب النواهى ، سيكون ثوابهم من الله تعالى كبيرا ، بل أكبر مما يخطر ببال المحسنين . ومما يدل على هذه الزيادة فى الإحسان الصيغة التى جاءت فيها لفظة الحسنى . إن الجزاء إذا كان فى مثل هذا الموضع الاستفهامى التقريرى من القرآن(٣) « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » يفهم منه أن الجزاء ينبغى أن يكون من جنس العمل . فإن هذا الجزاء فى موضع آخر(٤) « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » يمكن أن يفهم منه أن الجزاء يزيد على الإحسان لإيثار لفظة الحسنى التى يفهم من صياغتها أنها فى نهاية الحسن ، على لفظة الإحسان ، التى تفيد

---

(١) تفسير القرطبى : ٣٥٣٥ .

(٢) تفسير القرطبى : ٣٥٣٥ .

(٣) الرحمن : ٦٠ .

(٤) يونس : ٢٦ .

الإحسان مجردا . وخير ما يسعف على فهم هذه الزيادة اللفظة ذاتها « زيادة » فى قوله تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » وكذلك لفظة مثل بشأن جزاء المسيئين فى الآية الكريمة التالية « والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها »(١) .

وجاء فى سورة الكهف ، أثناء الحديث عن ذى القرنين ، ما يفيد هذه الزيادة ذاتها . قال تعالى : «حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوماً ، قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا . قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكرا . وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا »(٢) .

ومما أن الحسنى فى قوله تعالى : « للذين استجابوا لربهم الحسنى » تفيد أن ثوابهم أكبر من إحسانهم ، لذلك نحن نوافق أولئك الذين عبروا عن هذه المثوبة الحسنى بأنها الجنة(٣) التى فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على بال بشر .

وإذا كان ثواب المحسنين الجنة فما عقاب المسيئين إلى أنفسهم وإلى سواهم؟ هذا هو الجواب. « والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به . أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد » .

وأول ما يلوح من المقارنة بين الحديث عن الفريقين أن الحديث عن الذين استجابوا لربهم موجز بينما هو عن الذين لم يستجيبوا مستفيض ، مما يجوز أن يعتبر دليلا على أن هذه السورة الكريمة مكية فى مجموعها .

---

(١) يونس : ٢٧ .

(٢) الآيات : ٨٦ - ٨٨ .

(٣) انظر تفسير الطبرى : ١٣-٩٣ .

إن هؤلاء الذين لم يستجيبوا لربهم ، حينما يتبينون يوم القيامة الشر المستطير الذى سيحل بهم وفق أعمالهم السيئة فى الحياة الدنيا ، فإن الواحد منهم يتمنى أن لو يستطيع أن يفتدى نفسه بكل ما يملك . ويتمنى لو أنه كان يملك كل ما فى الأرض ومثله معه ، كى يتحقق له الافتداء من ذلك الموقف العصيب . إن الحديث عن الذين لم يستجيبوا لربهم يتضمن « لو » وهى حرف امتناع لأمتناع كما يقول النحاة . إن امتلاك ما فى الأرض جميعاً ممتنع عقلا ، فكيف بامتلاك مثله معه ؟ ولم الذهاب مع الأوهام إلى كل هذه الآماد بينما مبدأ الأفتداء ممتنع أساساً . إن هذه الممتنعات الثلاثة ، من رغبة فى الافتداء ، وامتلاك ما فى الأرض جميعاً ، وامتلاك مثله معه ، يقابلها ثلاثة أمور محققه . قال تعالى : « **أولئك لهم سوء الحساب ، ومأواهم جهنم ، وبئس المهاد** » .

أما سوء الحساب فيراد به ألا يقبل لمشرك حسنة ، ولا يتجاوز له عن سيئة . « قال ابن عباس : أن لا تقبل حسناتهم ولا تغفر سيئاتهم »(١) جاء فى سورة النساء(٢) ، قوله تعالى : « **إن الله لا يغفر أن يشرك به . ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** » . وفى سورة الفرقان . قوله تعالى : « **وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا** »(٣) وفى سورة الإسراء . قوله تعالى : « **وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** »(٤) وفى سورة الأنشقاق . قوله تعالى : « **فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً . وينقلب إلى أهله مسرورا . وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا . ويصلى سعيرا . إنه كان فى أهله مسرورا . إنه ظن أن لن يحور . بلى إن ربه كان به بصيرا** »(٥) .

---

(١) البحر المحيط : ٥-٣٨٣ .
(٢) آية : ٤٨ .
(٣) آية : ٢٣ .
(٤) آية : ١٣ ، ١٤ .
(٥) الآيات : ٧ - ١٥ .

إن من نوقش الحساب عذب ، ومن حوسب فى هذه الطريقة هلك ، وينتظره مكانه المعد له فى النار وبئس الفراش الذى مهد لنفسه فى معاده(١) يقول ابن جرير الطبرى(٢) : « وبئس المهاد ، يقول : وبئس الفراش والوطاء جهنم التى هى مأواهم يوم القيامة » . ويفهم من لفظة المهاد التى تعنى أن هذا الجزاء فى الآخرة نتيجة طبيعية لما مهد الإنسان لنفسه فى الدنيا . إن الجزاء من جنس العمل بشأن المسىء تماماً كما هو الحال بشأن المحسن . قال تعالى : **« للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به . أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد »** .

على غرار المقارنة فى المثل بين الماء والزبد . بين الحق والباطل ، بين ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض وما يذهب جفاء ، وعلى غرار الحديث عن مصير الذين استجابوا لربهم يوم القيامة والذين لم يستجيبوا له ، يتحول الحديث إلى المقارنة بين الموقفين من القرآن الكريم والدعوة إلى صراط العزيز الحميد . موقف الممتثل المذعن ، وموقف المعاند المتكبر . قال تعالى : **«أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، إنما يتذكر أولو الألباب»** إننا بصدد فريقين من الناس ، العمى والمبصرين . وإن النص على العلم فى الآية الكريمة ، وأن الذين يتذكرون إنما هم أولو الألباب ، يصرف لفظة العمى إلى عمى القلوب والبصائر . ولفظة المبصرين ، المفهومة بالتقابل بين صنفين من الناس ، إلى مبصرى القلوب والبصائر .

وبما أن القرآن الكريم يهدى للطريقة التى هى أقوم ، فإنه يعنى بهذا الإنسان الذى أنزل من أجله ، وبقصد صرف الضال إلى سواء السبيل وطريق الهدى ، تقارن الآية الكريمة فى طريقة استفهامية منكرة أن يسوى عقلا بين من يعلم أن القرآن الكريم الذى أنزل على الرسول الكريم هو الحق الذى لا مرية فيه

---

(١) انظر القاموس « مهد » .

(٢) تفسير الطبرى : ١٣ - ٩٣ .

ولا شك ، لا اختلاف ولا اضطراب ، ويمثل كل تعاليمه ، وبين من موقفه بعكس ذلك تماماً . إن الأول يعلم علم اليقين أن هذا القرآن كلام رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم بلسان عربى مبين ، ويعمل وفق علمه . وإن الآخر لا يعلم ولا يعمل أو لا يريد أن يعلم ولا يريد أن يعمل .

ولم اتخذ هذان الصنفان من الناس هذين الموقفين المختلفين من القرآن الكريم ومن الدعوة إلى صراط العزيز الحميد ؟ لأن مبصرى القلوب والبصائر قد انتفعوا من نعم الله تعالى عليهم ، وفى مقدمتها العقل الذى يمتاز به الإنسان . فكان لهذا العقل السيطرة على الأهواء والعواطف ، بعكس الفريق الآخر الذى عطل هذه النعمة ، وانساق وراء عواطفه وأهوائه . إن الأول عمل بما علم من علم نافع . وإن الآخر لم يعلم علما نافعاً وعمل بما أوحت إليه نفسه الأمارة بالسوء التى قادته إلى مهاوى الردى .

ولا يخفى أن فى الآية الكريمة إشادة بالعقل وثناء على الذين ينتفعون بهذه النعمة العظيمة ويستعملونها الاستعمال الصحيح . أين هذه الإشادة بالعقل ووضعه فى مكانه الصحيح وتبين الخط الذى يسير عليه والنهاية التى يقف عندها ، من موقف رجال المسيحية فى تلك الأزمنة ، من العقل حيث قد أعلن رجال الكنيسة أن الدين عدو للعقل(١) ! ولا يخفى أيضا أن الخطاب فى الآية الكريمة موجه للمصطفى صلى الله عليه وسلم . وفى ذلك تسلية له صلى الله عليه وسلم وتثبيت فؤاده ، ويلاحظ أن الفاء من القول « أفمن يعلم » للعطف(٢) .

وما هى أهم صفات أولى العقول الراجحة ؟ الجواب فى الآيات التالية .

---

(١) انظر هنا رسالة التوحيد ص ١٣٣ الطبعة السابعة عشرة .

(٢) البحر المحيط : ٥ - ٣٨٤ .

قال تعالى: « الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

إن أولى الألباب هم أولئك الذين استعملوا عقولهم استعمالا صحيحاً حراً طليقاً ، فانتهوا إلى أن القرآن الكريم كلام رب العالمين فعملوا فى هذه الحياة فى ضوء هذا النور المبين . وهذه هى أهم صفات أولى الألباب كما أشارت إلى ذلك الآيات .

١ — يوفون بعهد الله .

٢ — لا ينقضون الميثاق .

٣ — يصلون ما أمر الله به أن يوصل .

٤ — يخشون ربهم .

٥ — يخافون سوء الحساب .

٦ — صبروا ابتغاء وجه ربهم .

٧ — أقاموا الصـــلاة .

٨ — أنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية .

٩ — يدرءون بالحسنة السيئة .

ومما يصح التنبيه عليه بشأن الصياغة هو أن الغالب بشأن هذه الصفات استعمال صيغة الزمن المضارع ، بينما جاء فى شأن الصبر والصلاة والأنفاق سراً وجهراً استعمال صيغة الزمن الماضى . ويلاحظ أن الملائكة التى تدخل من كل باب من أبواب الجنة مهنئة أولى الألباب مرحبة بهم ، تشيد بصفة

الصبر التى تحلى بها أولو الألباب فى الدنيا ، لأنها عماد كل الأعمال الصالحة التى قاموا بها .

ونحن نود أن نقف عند كل واحدة من هذه الصفات وفق ترتيب الآيات لها . جاء بشأن الوفاء بالعهد وعدم نقض الميثاق قوله تعالى : « الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق » .

إن سمة الوفاء بعهد الله هى أولى السمات المهمة لأولى الألباب . وإن أول ما يفون به العهد الذى قطعوه على أنفسهم وهم فى عالم الذر بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، والذى ساعدهم على هذا الوفاء العلم القطعى عن طريق الوحى بذلك العهد الذى أخذ عليهم ، لأنهم يؤمنون بكل ما جاء فى القرآن الكريم الذى أنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم . جاء فى سورة الأعراف(١) . قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون » . وبهذا هم يجيبون داعى الفطرة المهيئة بطبعها لأن تعبد الله تعالى وحده لا شريك له . جاء فى سورة الروم(٢) قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، كل حزب بما لديهم فرحون » .

وهم يستعينون على ذلك الوفاء بعقولهم التى استعملوها استعمالا صحيحاً . وإذا كان الوفاء بعهد الله تعالى يعنى فى المقام الأول العهد الذى قطعه الإنسان لبارئه بألا يشرك به شيئاً ، فإنه يعنى وراء ذلك كل عهد بين الإنسان وأخيه الإنسان . إن من أهم سمات المسلمين ، خلال العصور ، فى المعاملات ،

---

(١) آية : ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٢) الآيات : ٣٠ - ٣٢ .

الوفاء بالعهود والمواثيق . ويلاحظ أن الحديث عن هذا النوع من العهود ، الذى يعنى فى المقام الأول العهد بين العبد وبين بارئه ، يجىء حاثاً على الوفاء « للذين يوفون بعهد الله » لأن عدم الوفاء معناه أن الإنسان لم يحقق الغرض الذى خلق من أجله . قال عز من قائل : « **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** »(١) . فالوفاء معناه الحياة . وعدم الوفاء معناه الموت والوفاة . وبئس هذا النوع من الموت والوفاة ، إذ لا حياة حقيقية فى الحياة الدنيا ولا فى الآخرة الا مع الوفاء .

فإذا تحولنا إلى الصفة الثانية لأولى الألباب « ولا ينقضون الميثاق » تبينا أنها تنفى عن هؤلاء صفة نقض المواثيق . وإذا كنا نستطيع أن نقول بشأن الوفاء بعهد الله تعالى ، إنه يعنى أساساً العهد بين العبد وبين بارئه ، ولهذا جاء فى سورة مريم مقروناً بلفظة الرحمن ، . قال تعالى : « **إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا** »(٢) . ويتسع كى يشمل العهد بين الإنسان وأخيه الإنسان فإنا نستطيع أن نقول بشأن عدم نقض الميثاق ، إنه يعنى الموثق من الله بين الإنسان وأخيه الإنسان . فقد جاء فى سورة يوسف(٣) مثلاً مستعملا فى هذا المعنى . قال تعالى : « **قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنى به إلا أن يحاط بكم . فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل** » . ويتسع كى يشمل الموثق بين العبد وبارئه . إن الميثاق ، ومعناه العهد الوثيق المحكم الذى يكون بين الإنسان وأخيه الإنسان ، لا يصح من أولى الألباب المسلمين لله رب العالمين أن ينقضوه .

ونحن إذا نظرنا إلى العهد فى الآية الكريمة على أنه يعنى أساساً العهد بين العبد وبارئه ، وإلى الميثاق على أنه يعنى أساساً الموثق بين الإنسان وأخيه الإنسان ، فإنا نستطيع أن نفهم السر فى تنويع التعبير حثاً على الوفاء بالعهد وعدم نقض الميثاق « الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق » . إن

---

(١) الذاريات : ٥٦ .
(٢) آية : ٨٧ .
(٣) آية : ٦٦ .

الوفاء بعهد الله ينبغى أن يتم وإن خان العهد غير أولى الألباب . وإن عدم نقض الميثاق ينبغى أن يتم . وإن اعتاد نقض الموثق غير أولى الألباب .

وإذا كان العهد بين العبد وبين بارئه ، وكان الميثاق بين الإنسان وبين جنس الإنسان . فإن الصفة التالية بعد ذلك تتعلق كسابقتها بنوع من المعاملة ولكنها تكون أحياناً فى دائرة أضيق ، إنها تعنى صلة الرحم فى المقام الأول التى جاءت الإشارة إليها ضمن صفتين أخريين فى الآية الكريمة التالية . قال تعالى : « والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب» . لقد جاء فى سورة النساء الإشارة إلى الأرحام . قال تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا (١) » . وإذا كانت صلة ما أمر الله به أن يوصل تعنى أساساً صلة الرحم ، فإنها تتسع كى تشمل(٢) « صلة قرابة الإسلام ، بإفشاء السلام وعيادة المرضى وشهود الجنائز ومراعاة حق الجيران والرفقاء والأصحاب والخدم » . وإذا كانت هذه الأنواع من الصلات فى مجموعها تأخذ فى الاتجاه بعيداً عن ذات الإنسان ، فإنها تأخذ فى الاتجاه قريباً من ذات الإنسان كى تبدأ بالوالدين فالأقربين . جاء فى سورة الإسراء(٣) قوله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا . إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

ونود الاستئناس فى هذا الشأن بعدد من الأحاديث النبوية الشريفة . جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، من أحق

---

(١) الآية : ١ .

(٢) البحر المحيط : ٥ - ٣٨٥ .

(٣) آية : ٢٣ ، ٢٤ .

بحسن صحابتي ؟ قال : أمك . قال ثم من ؟ قال : أمك . قال ثم من . قال : أمك . قال ثم من ؟ قال : ثم أبوك(١) وقال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم أجاهد ؟ قال : لك أبوان ؟ قال : نعم . قال ففيهما فجاهد(٢) وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات . ومنع وهات ووأد البنات . وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال(٣) وقال صلى الله عليه وسلم : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا بلى يا رسول الله . قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين . وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور . ألا وقول الزور وشهادة الزور . فما زال يقولها حتى قلت : لا يسكت(٤)وجاء على لسان أبي سفيان عن النبي صلى الله عليه وسلم مخاطباً هرقل : يأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والصلة(٥) وسأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم أن يخبره عن عمل يدخله الجنة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة . وتؤتي الزكاة ، وتصل الرحم(٦) . وقال صلى الله عليه وسلم : من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه(٧) وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم . هذا مقام العائذ بك من القطيعة ؟ قال : نعم . ما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك . قالت بلى : يا رب . قال فهو لك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فاقرءوا إن شئتم : فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم(٨) وقال صلى الله عليه وسلم : ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل

---

(١) صحيح البخاري : ٨-٢ .
(٢) نفسه : ٨-٣ .
(٣) نفسه : ٨-٤ .
(٤) نفسه : ٨-٤ .
(٥) نفسه : ٨-٥ .
(٦) نفسه : ٨-٦ .
(٧) نفسه : ٨-٦ .
(٨) الصحيح : ٨-٦ .

الذى إذا قطعت رحمه وصلها(١) وجاءت امرأة معها ابنتان تسأل السيدة عائشة رضى الله عنها ، فلم تجد عندها غير تمرة واحدة ، فأعطتها إياها فقسمتها بين ابنتيها . ثم قامت فخرجت . فدخل النبى صلى الله عليه وسلم فحدثته السيدة عائشة . فقال : من يلى من هذه البنات شيئاً فأحسن إليهن كن له ستراً من النار(٢). وقال صلى الله عليه وسلم : أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا . وقال بإصبعيه ، السبابة والوسطى(٣) وقال صلى الله عليه وسلم : الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله . أو كالذى يصوم النهار ويقوم الليل(٤) وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينما رجل يمشى بطريق ، اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى . فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه . فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له . قالوا يا رسول الله ، وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : فى كل كبد رطبة أجر(٥) وعن النعمان بن بشير ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد ، إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى(٦) وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما من مسلم غرس غرساً فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة(٧) وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : من لا يرحم لا يرحم(٨) وعن عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ما زال جبريل

---

(١) نفسه : ٨-٧ .
(٢) نفسه : ٨-٨
(٣) نفسه : ٨-٨ .
(٤) نفسه : ٨-١٠ .
(٥) نفسه : ٨-١٠ .
(٦) نفسه : ٨-١١ .
(٧) الصحيح : ٨-١٢ .
(٨) نفسه : ٨-١٢ .

يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه(١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره . ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت(٢) وعن عائشة قالت : قلت يا رسول الله ، إن لى جارين فإلى أيهما أهدى ؟ قال : إلى أقربهما منك بابا(٣) . وقال صلى الله عليه وسلم : على كل مسلم صدقة . قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق . قالوا : فإن لم يستطع أو لم يفعل ؟ قال فيعين ذا الحاجة الملهوف قالوا فإن لم يفعل ؟ قال فيأمر بالخير أو قال بالمعروف . قالوا : فإن لم يفعل ؟ قال فيمسك عن الشر فإن له صدقة(٤). وعنه صلى الله عليه وسلم : الكلمة الطيبة صدقة(٥) وقال صلى الله عليه وسلم : اتقوا النار ولو بشق تمرة(٦) وقال : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ثم شبك بين أصابعه(٧) وقال : إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره(٨) وقال : إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً(٩) وعن أنس رضى الله عنه قال : خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لى أف ولا لم صنعت ولا ألا صنعت(١٠)وعن النبي صلى الله عليه وسلم : إذا أحب الله عبداً نادى جبريل : إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل . فينادى جبريل فى أهل السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى أهل الأرض(١١) . وقال صلى الله عليه وسلم فى معاملة العمال : هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم . فمن جعل الله أخاه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه . فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه(١٢)وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتباغضوا ولاتحاسدوا ولاتدابروا

---

(١) نفسه : ٨-١٢ .
(٢) نفسه : ٨-١٢ .
(٣) نفسه : ٨-١٣ .
(٤) نفسه : ٨-١٣ .
(٥) نفسه : ٨-١٤ .
(٦) نفسه : ٨-١٤ .
(٧) نفسه : ٨-١٤ .
(٨) نفسه : ٨-١٦ .
(٩) نفسه : ٨-١٦ .
(١٠) الصحيح : ٨-١٧ .
(١١) نفسه : ٨-١٧ .
(١٢) نفسه : ٨-١٩ .

وكونوا عباد الله إخوانا . ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام(١) وقال صلى الله عليه وسلم : لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال(٢).

وما دمنا عرفنا أن صلة أولى الألباب ما أمر الله به أن يوصل ، من أرحام وغيرهم ، ممن يقترب من الإنسان بأكثر من الأرحام كالوالدين والأقربين ومن فى حكمهم ، وممن يبتعد عنه كالفقراء والمساكين ومن فى حكمهم ، فمعنى هذا أن هذه الصلة ، إنما تراعى امتثالا لأوامر الله تعالى ، واجتناباً لنواهيه . ولو أننا نظرنا إلى موقف الناس من أهم عناصر هذه الصلة من العمود الفقرى لهذه الصلة ، أعنى الأرحام والأقارب ، لتبينا أن الناس فى مجموعهم متهاونون فى صلة الرحم ، وكأنهم لا يحسون بذنب قطيعة الرحم ، وكأن الذين يصلونها ، هم تلك الفئة القليلة من الناس ، التى تمكن الإيمان من قلوبها فأحست بسعادة صلة الرحم ، إثر تطبيقها لتعاليم الإسلام ، رجاء الثواب من الله تعالى . وكأن هذه الفئة التى وصلت إلى هذا المستوى من الوعى وصفاء السريرة ونقاء الضمير ، هى التى تحس بالذنب لأدنى تقصير فى حق هذه الرحم ، مما يعتبر قطيعة فى حقها .

والذى يتبين هو أن كثيراً من الناس مقصرون فى حق الأرحام ، ولا يحسون بأدنى حرج إزاء ذلك التقصير . وكأن القطيعة ليست من الذنب فى قليل ولا كثير . وهذا مخالف لروح التعاليم الإسلامية التى تدعو إلى صلة الرحم وتحث على ذلك ، وتعد الواصل بالثواب الجزيل فى الدنيا والآخرة .

وإذا كان إحساس الناس فى مجموعهم ضعيفاً تجاه صلة الأرحام ، لعدم الإحساس الواضح بالذنب فى حالة التقصير ، والجهل بالثواب فى حالة الوفاء ، فإن إعطاء الرحم حقها من الصلة ، من سمات أولى الألباب ، الذين يطمعون فى الثواب بامتثال الأوامر ، فإن السمتين التاليتين لأولى

---

(١) نفسه : ٨-٢٣ ، ٢٥ .

(٢) نفسه : ٨ - ٢٥ . وانظر ص ٢٦ .

الألباب فى الآية الكريمة ، نستطيع أن نقول عن إحداهما « ويخشون ربهم » إنها تجمع بين حب الله تعالى وهيبته . ومن مجموع هاتين الصفتين تتكون الخشية . ونستطيع أن نقول عن ثانيتهما « ويخافون سوء الحساب » إنها تجمع بين الخوف والرجاء . ومن مجموع هاتين الصفتين تحاسب هذه الفئة أنفسها ، قبل أن تحاسب . وتعمل وفق الحساب الدقيق . إن الذين يخشون ربهم يجمعون فى أنفسهم بين حب الله تعالى والخوف منه ، ويترجمون الحب والهيبة ، أو الحب والخوف عملا صالحاً ، يرجون منه رضى الله تعالى ، والثواب عليه ، ويجتنبون سيىء الأعمال . وإن الذين يخافون سوء الحساب ، يجتنبون سيىء الأعمال ، خوفاً من سوء الحساب يوم القيامة ، حيث لا يغادر كتاب الأعمال صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، كما أنهم فى المقابل ، يعملون صالح الأعمال .

ونحن حينما نضع معانى الآية الكريمة الثلاثة فى نسق « والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » ونجمع فى نسق بين الحوافز النفسية الرئيسية للأعمال الصالحة ، لأولى الألباب ، من كونهم بشأن الصفة الأولى « يصلون ما أمر الله به أن يوصل » ينطلقون أساساً من الرغبة فى الثواب . وبشأن الصفة الثانية « ويخشون ربهم » ينطلقون أساساً من الخشية ، وهى الشعور المزيج من الحب والإجلال . وبشأن الصفة الثالثة « ويخافون سوء الحساب » ينطلقون من الخوف . فإنا نستطيع ببساطة أن نلمح اتجاها معيناً تسير وفقه المعانى باطراد ، حيث القوة ، والعمق ، بحيث نستطيع أن نقول : إن الفكرة الأولى يرتبط بها أساساً الرجاء . والفكرة الثانية يرتبط بها مزيج الرجاء والإجلال . والفكرة الثالثة يرتبط بها الخوف . إن الأفكار تخضع فى عرضها لتدرج منطقى ، والعبارة ينتظمها ما يمكن أن يسمى بالبناء الهرمى للمعانى أو الأفكار .

إن هذه المشاعر المتنوعة التى تتجاذب أولى الألباب ، ابتداء بالرجاء وانتهاء بالخوف ، تعنى أن هؤلاء العباد يضربون مثلا عالياً فى الحذر وعدم الغفلة ، وهم يتأسون فى ذلك بسيد الخلق محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ،

الذى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ومع ذلك يعبد الله تعالى قياماً حتى تتورم قدماه . وحينما يخاطب فى ذلك يقول : أفلا أكون عبداً شكوراً . إن أولى الألباب الذين ينبغى التأسى بهم ، يضربون مثلا رفيعاً فى الحذر وعدم الغفلة ، لأنهم على علم تام بأن دخولهم الجنة رهن بقبول الله تعالى لأعمالهم الصالحة وتجاوزه عن سيئاتهم . إن على كل إنسان أن يحرص جهد الطاقة أن يكون واحداً من أولى الألباب الذين من أهم صفاتهم الحذر وعدم الغفلة طرفة عين . لقد صحح المصطفى صلى الله عليه وسلم للسيدة عائشة رضى الله تعالى عنها مفهوم هذه الآية الكريمة من سورة المؤمنون(١) «**والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون**» قالت : قلت يا رسول الله هو الذى يزنى ويسرق ويشرب الخمر وهو على ذلك يخاف الله ؟ قال : لا يا ابنة الصديق ، ولكن هو الذى يصلى ويصوم ويتصدق ، وهو على ذلك يخاف الله ألا يقبل منه »(٢) .

فإذا تحولنا إلى الآية الكريمة التالية التى تتحدث عن آخر مجموعة فى نسق من صفات أولى الألباب ، فإنا نتبين أنها تتحدث عن أربع صفات ، وقد سبق أن لاحظنا أن الآية السابقة تتحدث عن ثلاث صفات والآية الأسبق تتحدث عن صفتين اثنتين فقط . فعدد الصفات يأخذ فى الأرتفاع المطرد فى الثلاث الآيات وفق نسق بديع . وهذه هى الآية الكريمة التى تتحدث عن أربع من صفات أولى الألباب ، وتشير إلى الثواب الذى ينتظرهم . قال تعالى : « **والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة . أولئك لهم عقبى الدار** » .

ومما يصح أن يقال بشأن هذه الآية الكريمة هو أنها على غرار آيات السورة ، تجمع بين عدد من الصفات المتقابلة . فثمة السر والعلانية ، وثمة الحسنة والسيئة .

---

(١) آية : ٦٠ .

(٢) الكشاف : ٢-٣٦٤ .

على أن أهم ما يلاحظ بشأن الآية الكريمة ، أن فيها عدولا عن استعمال صيغة المضارع إلى استعمال صيغة الماضى بشأن ثلاث صفات « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية » ثم عودة إلى استعمال صيغة المضارع بشأن الصفة الأخيرة « ويدرءون بالحسنة السيئة » .

ومع أنه يصح أن يقال فى هذا الصدد إننا بصدد مظهر من مظاهر التنويع فى التعبير والتفنن فى القول(١) وهذا جميل فى حد ذاته ، إلا أن ثمة سبباً آخر جوهرياً وراء هذا العدول إلى الماضى فالعودة إلى المضارع . ويتبين هذا السبب حينما نتأمل هذه الصفات ، محاولين أن نتبين أهم ما تختص به . إن أهم ما يلاحظ بشأن الصبر الذى جاء ذكره ، فى صيغة الزمن الماضى فى قوله تعالى : « **والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم** » هو أن هذا العنصر شرط أساسى بشأن كل الصفات الحسنة التى يعرف بها أولو الألباب . وأكبر دليل على ذلك هو أن الملائكة حينما تخاطب أولى الألباب بعد دخولهم الجنة فى الآية الرابعة والعشرين ، تنص على الصبر باعتباره أهم صفة رئيسية يتحلى بها أولو الألباب . قال تعالى على لسان الملائكة الأطهار : « **سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** » فبما أن الصبر يشترط وجوده ملازماً لأية صفة من صفات أولى الألباب ، فمعنى هذا أن الصبر من سماته أنه قديم جديد . إنه قديم لأنه سابق وجودا لكل صفات هؤلاء العقلاء . وإنه جديد لأنه مستمر وجوده بشأن كل من هذه الصفات . وإن الشىء ذاته يقال عن الصفة الثانية التى يتسم بها أولو الألباب « وأقاموا الصلاة » إن الصلاة عماد الدين . وهى تنهى عن الفحشاء والمنكر . ويأتى مفعول الصلاة الأكيد ، لأن أهم صفة فيها التكرار فى كل يوم من أيام المكلف إلى اللحظة التى يغادر فيها هذه الحياة . فالصلاة التى تقام فى كل الأوقات ، هى ذات الصلاة التى قام بها المكلف ، منذ أن وقع تحت التكليف . فهى عبادة روحية يتجه

---

(١) انظر هنا البحر المحيط : ٥-٣٨٥ .

بها العبد إلى ربه مباشرة طوال حياته . وهى بسبب التكرار تحتاج إلى الصبر . لأن الإنسان مطالب بها ليلا ونهارا . وإذا كان الصبر ضرورياً لإقامة الصلاة على وجهها ، فإن إقامة الصلاة « بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى »(١) لتطهيرها نفس الإنسان ، مقوية للصبر ذاته ، معينة له على أن يكون له على الإنسان سلطانه . إن الصلاة حينما تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فإنها تمد الإنسان بطاقة روحية هائلة ، هى عماد الصبر ودعامته ، جاء فى سورة العنكبوت ، قوله تعالى : **« اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون »(٢) .**

وإذا كانت الصلاة زكاة للبدن وطهارة ، فإن الزكاة والصدقة زكاة للمال وطهارة . وبما أن النفس قد فطرت على حب المال ، وبما أن على الموسر أن يدفع زكاة ماله حقاً لأخيه الإنسان المحتاج ، وبما أن هذه الحاجة تكاد تكون موجودة دائماً ، لذلك كان فى القرآن الكريم الجمع غالباً بين الصلاة والزكاة . الصلاة التى تتكرر فى اليوم والليلة ، والتى هى ضرورية لتطهير الإنسان وتزكيته ، والتى تنال شيئاً من حياة الإنسان ، مجهوده ووقته . والزكاة التى تتكرر كل عام ، والتى هى ضرورية لتطهير الأموال والأبدان ، والتى تقتطع شيئاً من مال الإنسان ، أى من حياته مجهوده ووقته .

لقد جمع السياق فى صيغة الزمن الماضى بين هذه الصفات الثلاث ، لأنها بسبب ملازمتها للإنسان ، قديمة مستأنفة . ولأنها من أجل هذه الملازمة لأولى الألباب ، تحتاج إلى عناية خاصة . لأن صفات أولى الألباب الأخرى التى نص عليها السياق تحققها هذه الصفات الثلاث . الصبر . الصلاة . الزكاة . إن الصبر عنصر أساسى بشأن الوفاء بعهد الله وعدم نقض الميثاق وفى صلة

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ - ٥١٠ .

(٢) آية : ٤٥ .

الرحم وخشية الله وخوف سوء الحساب وفى درء السيئة بالحسنة . وإن الصلاة عنصر أساسى لتحقيق هذه الصفات . وإن الزكاة التى تعنى اقتطاع جزء من المـــال العزيز على الإنسان ، تحقق هى ذاتها بعض هذه الصفات ، كصلة الرحم وخشية الله وخوف سوء الحساب ، ودرء السيئة بالحسنة . وإن الوفاء مع المحتاج بإعطائه حقه الذى جعله الله تعالى له فى مال الغنى ، يعتبر مظهراً آخر من مظاهر الوفاء بالعهود والمواثيق .

حتى إذا تحولنا إلى الصفة الأخيرة ويدرءون بالحسنة السيئة ، تبينا العودة إلى صيغة الزمن المضارع باعتبار دفع أولى الألباب السيئة بالحسنة ، لا يتقيد بوقت من الأوقات أو بحال من الأحوال . إن أولى العقول الراجحة لا يخفى عليهم تقصيرهم فى جنب الله تعالى . ولا يخفى عليهم باب التوبة النصوح المفتوح على مصراعيه دائماً . لذلك هم كلما آب إليهم رشدهم يبادرون بعمل الحسنات اللائى يذهبن السيئات ويدفعنها بعفوالله تعالى وفضله . « ونظيره . إن الحسنات يذهبن السيئات . ومنه قوله عليه السلام لمعاذ : وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن »(١) . ونستطيع أن نفهم الحسنات هنا بأنها تشمل النوافل بعد أن شملت الفرائض بطبيعة الحال .

وقبل أن نقف عند الجزئية الأخيرة التى تشير إلى ثواب أولى الألباب ، والتى ختمت بها الآية الكريمة « أولئك لهم عقبى الدار » نود أن نقف قليلا عند القول « ابتغاء وجه ربهم » والقول « وأنفقوا مما رزقناهم » .

إن أولى الألباب يمتازون بالصبر فى السراء والضراء ، رجاء رضوان الله تعالى . إنهم على سبيل المثال يصبرون فى الشدائد ، لأن الدين الحنيف يأمرهم بالصبر وينهاهم عن الهلع والجزع رجاء رضوان الله تعالى ، وليس من أجل أن يقال عنهم فى البأساء ما أشجعهم ، وفى الضراء ما أشد تحملهم وتجلدهم . على حد قول أبى ذؤيب الهذلى(٢) :

---

(١) تفسير القرطبى : ص ٣٥٤٠ .

(٢) البحر المحيط : ٥-٣٨٦ .

وتجلدى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعضع

وإنهم على سبيل المثال ، يصبرون فى السراء عن كل أنواع المعاصى ، لأن الدين الحنيف يأمرهم بالصبر ، وينهاهم عن كفران النعمة ، ابتغاء رضوان الله تعالى ، وليس من أجل أن يقال عنهم ما أتقاهم وما أكثر صيامهم وقيامهم . ولهذا كان فى الدين الحنيف نهى شديد عن الرياء الذى يعتبر مظهراً من مظاهر الشرك الخفى .

والآية الكريمة تستعمل لفظة « وجه » دليلا على الرضى ، على طريقة العرب الذين نزل القرآن الكريم بلسانهم ، فى استعمالهم هذه اللفظة ، دليلا على الرضى وعلى الوجهة .

اننا فى استعمالاتنا العادية نعبر عن الرضى بإقبال الوجه مثلا ، وعن عدم الرضى بإشاحة الوجه وإعراضه . وإن القرآن الكريم ، الذى نزل بلسان عربى مبين ، يستعمل ذات المعجم اللغوى . وذات طرائق التعبير التى اعتاد عليها العرب وألفوها فى التعبير عن المعانى المتعارف عليها . وإن استعمال لفظة وجه فى الآية الكريمة ، يعتبر مظهراً من مظاهر استعمال طرائق العرب فى تعبيرها ، عن المرضاة والرضوان . وإن لفظة رب ، التى يرتبط بها تربية الله تعالى لعباده بالنعم ، والتى تستعمل عادة فى مواقف التذكير بهذه النعم ، تعتبر قوة للرضى الذى توحى به الجزئية الكريمة .

فإذا تحولنا إلى الحديث عن إنفاق المال فى سبيل الله تعالى « وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية » فالذى يوقفنا ابتداء جملة « أنفقوا » . مما يدل على أوجه البر المختلفة . فإذا أضيف إلى ذلك القول « مما رزقناهم » استطعنا أن نفهم أن ثمة فرقاً بين التعبير هنا وبين التعبير فى غير هذا الموضع « ويؤتون الزكاة » بأن التعبير هنا الذى يعنى أن أولى الألباب ينفقون مما رزقهم الله تعالى ، شامل للزكاة وللصدقات ولمختلف أوجه البر . فالتعبير هنا يفيد العموم ، لأن أولى الألباب يعلمون أنهم ينفقون من مال الله الذى آتاهم . ولا ينقص مال من صدقة كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم .

فكيف ينقص المـال من الزكاة . ومما هو مقو للمعنى الشامل للتعبير هنا الذى يشمل الزكاة والصدقات ، تقديم لفظة « سراً » على « علانية » إذ المعروف أن الصدقة ، وهى من النوافل ، فى السر أولى . « كما جاء فى السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها »(١) . وأن الزكاة ، وهى من الفرائض فى العلانية أولى « لوجوب المجاهرة بها نفياً للتهمة »(٢) والمعروف أن غير المتصدق لا يتعرض غالباً للوم والتثريب ، بينما يتعرض غير المزكى لذلك حتما . فلكى يدفع المرء عن نفسه تهمة التهاون فى ركن من أركان الإسلام ، وكى يغرى سواه بالتأسى به ، حسن أن تدفع الزكاة علانية . وحينما تقدم الآية الكريمة صفة السر على العلانية ، فذلك دليل على أن أولى الألباب كثيرو التصدق على المحتاجين ، ومن باب أولى أن يكونوا قائمين بما يجب عليهم فى أموالهم من زكاة .

ومع أن هؤلاء العقلاء ينفقون الكثير سراً وعلانية ، فإن استعمال الآية الكريمة « من » التى تدل على التبعيض فى القول : « مما رزقناهم » يعنى أنهم لا ينسون نصيبهم من الدنيا . وهذا يذكرنا بقوله تعالى فى سورة الفرقان . عن عباد الرحمن : « **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** »(٣). وإن جملة أنفق فى آية الفرقان تعنى النفقة على نفس الإنسان وعلى من فى حكم نفسه ، كما تعنى الصدقات . وإن هذا المعنى يصح أن تشمله هذه الجزئية من آية الرعد « وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية » .

وإن فى ذكر الآية الكريمة السيئة التى تدفع وتتبع بالحسنة معناها أن هؤلاء العقلاء من الجائز عقلا أن يتورطوا فى بعض لمم الذنوب ، فابن آدم خطاء ، ولكن أولى الألباب لايستهينون بأية سيئة صغيرة ، ومن باب أولى ما يكبرها ، لذاهم يبادرون بالتوبة النصوح وبالعمل الصالح . إن

---

(١) البحر المحيط : ٥-٣٨٦ .
(٢) الكشاف : ٢-١٦٥ .
(٣) آية : ٦٧ .

التوبة لا تكفى إذا لم تردف بالعمل الصالح . وإن هؤلاء العباد يتوبون إلى الله تعالى . وخير الخطائين التوابون . ويعملون الحسنات بقصد أن تمحوا الحسنات السيئات بفضل الله تعالى وعفوه ، على نحو ما أشارت إلى ذلك سورة الفرقان قال تعالى : « **إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما . ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متابا** »(١) .

وبما أن هؤلاء العقلاء إنما يقومون بكل هذه الأعمال الصالحة فى هذه الدار التى هى دار العمل كى ينالوا يوم القيامة الثواب الأوفى الذى وعدهم الله تعالى به عقب العمل الصالح فى دار العمل ، فإن الآية الكريمة فى جزئيتها الأخيرة : « أولئك لهم عقبى الدار » تشير إلى أن هؤلاء العقلاء قد حققوا فى حياتهم الدنيا الهدف الأسمى الذى خلقوا من أجله ، وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وبفعل الأوامر واجتناب النواهى ، لذلك استحقوا العاقبة الحميدة ، بعد أن يغادروا هذه الدار إلى دار الجزاء . « وعقبى الدار : عاقبة الدنيا وهى الجنة . لأنها التى أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا »(٢) ومرجع أهلها »(٣) .

وما هى عقبى الدار الدنيا تلك العقبى التى تتمشى مع تحقيق الهدف الذى خلق من أجله الإنسان وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ؟ وما الذى ينتظر هؤلاء العقلاء يوم القيامة وقد قاموا فى دار العمل بالأعمال الصالحة التى طلبت منهم ؟ الجواب فى الآيتين الكريمتين التاليتين . قال تعالى : « **جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** » .

إن العقبى الصحيحة لهذه الدار التى أريد من الإنسان فيها أن يطيع الله تعالى ورسوله ، جنات فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر ، يدخلها هؤلاء العباد خالدين ، لا ظاعنين ولا ميتين . وبما أن الإنسان

---

(١) آية : ٧٠ ، ٧١ .

(٢) الكشاف : ٢-١٦٥ . والبحر المحيط : ٥-٣٨٦ .

(٣) البحر المحيط : ٥-٣٨٦ .

السوى الفطرة السليم الصدر ، الراجح العقل ، حينما يكون فى هذه الحياة الدنيا فى نعيم ، فإنه أحرص الناس على أن يشاركه أحبابه ذلك النعيم . وبما أن من سمات أولى الألباب ، عباد الرحمن ، أن يعملوا جاهدين فى الحياة الدنيا على أن تتسع دائرة الإيمان كى تشمل القريب والبعيد على حد سواء ، وكى ينال الجميع النعيم المقيم يوم القيامة ، على نحو ما أشارت سورة الفرقان . فى حق عباد الرحمن . قال تعالى : «**والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما**»(١) .فإنه إكراما منه عز وجل لهؤلاء العباد ، وتفضلا عليهم ومنا — دون أن ينقص شىء من ثوابهم — يرفع إلى مستواهم فى الإكرام والنعيم المقيم من حرص فى الحياة الدنيا من أهل هؤلاء العباد ، على أن يكون له حظه الموفور من ذلك النعيم المقيم بأن عمل الصالحات . إن النية الطيبة والعمل الصالح ، ينبغى أن يتوفر كل فى أهل عبد الرحمن كى يكونوا أهلا لتفضل الله تعالى عليهم بأن يرفعهم إلى مستوى المنعم عليه من أولى الألباب . قال عز من قائل : « **جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم** » ويلاحظ أن الآية الكريمة تشير إلى أحب الناس إلى الصالحين ، من السابقين زمنا والمعاصرين واللاحقين ، إنهم الآباء والأزواج والذرية . وإن الصلاح الذى تشترطه الآية الكريمة يعنى أن على كل إنسان ذى عقل راجح ولب ناضج ، أن يعمل جاهداً الصالحات ، وأن يجتنب السيئات . فلا يليق بأى إنسان مهما زكا نسبه ، أن يأتى يوم القيامة بنسبه ، بينما يجىء الناس بأعمالهم الصالحة . وإلى هذا المعنى الذى أشارت إليه الآية الكريمة ، أشار الحديث النبوى الشريف الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عز وجل : وأنذر عشيرتك الأقربين . قال : يا معشر قريش ، أو كلمة نحوها ، اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئاً . ويا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً . ويا فاطمة بنت محمد ، سلينى ما شئت من مالى ،

---

(١) آية : ٧٤ .

لا أغنى عنك من الله شيئاً(١). فإذا كان آل بيت النبوة ينصحون بعمل الصالحات فمن باب أولى سواهم . فلا يليق بإنسان عاقل أن يكتفى بما ظهر له من صلاح أبيه أو جده أو ولده ! إن كل إنسان مسئول وحده عن كل ما يدر منه من خير أو شر . ويوم القيامة يثاب المحسن ويعاقب المسىء . ومن مظاهر ثواب المحسن أن ترفع درجته إلى مستوى قريبه الصالح إكراماً منه عز وجل لعبده الصالح المنتفع بعمله .

وإذا كان هؤلاء العباد يدخلون الجنة التى ورثوها مقابل الأعمال الصالحة التى قاموا بها فى الدنيا واجتنابهم للنواهى ، فإن من مظاهر الإكرام لهؤلاء الصالحين وقد دخلوا الجنة ، أن الملائكة تدخل عليهم بالتحف والهدايا من الله تعالى تكرمة لهم(٢) من كل باب من أبواب الجنة مرحبة مهنئة واعدة بالأمن والسلامة والطمأنينة التى لن تنقطع ولن تزول . « **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** » .

إن الآية الكريمة تشير على لسان الملائكة إلى أهم صفة يتحلى بها أولو الألباب . إنها صفة الصبر التى عبر عنها من قبل ، بطريقة متميزة ، هى صيغة الزمن الماضى ، مما يدل على قيمة هذه الصفة التى هى شرط أساسى فى كل ما يفعل الإنسان ويدع وفق تعاليم القرآن الكريم وتعاليم السنة المطهرة . وتشير الملائكة فى حديثها عن النعيم الذى فيه أولئك العباد ، والنعيم المقيم الذى ينتظرهم ، بما يفيد أنه يمثل العقبى الطبيعية التى أعدها الله تعالى لأوليائه الذين عملوا فى حياتهم بما قال الله تعالى وقال الرسول « **جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب ، إنه كان وعده مأتيا** »(٣). قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تدرون من يدخل الجنة من خلق الله؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : المجاهدون الذين تسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره فيموت أحدهم وحاجته فى نفسه لا يستطيع لها قضاء ، فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل

---

(١) صحيح البخارى : ٤-٨ .

(٢) البحر المحيط : ٥-٣٨٧ .

(٣) مريم : ٦١ .

باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . وقال محمد بن إبراهيم : كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان »(١). « فنعم عقبى الدار ، أى نعم عاقبة الدار التى كنتم فيها . عملتم فيها ما أعقبكم هذا الذى أنتم فيه . فالعقبى على هذا اسم . والدار هى الدنيا »(٢). ويمكن أن تكون الباء من « بما صبرتم » بمعنى بدل ، أى بدل صبركم »(٣) .

وإن الإشارة إلى عقبى الدار التى هى من نصيب المؤمنين المتقين ، عقب الإشارة إلى الذين استجابوا لربهم والذين لم يستجيبوا له ، والإشارة إلى من يعلم أن ما أنزل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من ربه ، وإلى الأعمى الذى لا يعلم ذلك ، يقتضى الحديث عن عقاب الفريق المقابل . خاصة أننا بصدد سورة كريمة ، من أهم سماتها جمعها فى نسق بين الصفات المتقابلة . وهذا الحديث عن العقاب جاء فى الآية الكريمة التالية ، التى تشير إلى عمى البصائر ، الذين لم يستجيبوا لربهم . قال تعالى : « **والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار** » .

إن الآية الكريمة تذكر ثلاث صفات رئيسية للحمقى المغفلين ، الذين استحبوا العمى على الهدى . الصفة الأولى : أنهم نقضوا عهد الله تعالى من بعد ميثاقه ، وذلك فى مقابل وفاء أولى الألباب بالعهود والمواثيق . وقد عرفنا أن أولى العهود والمواثيق بالوفاء ، ما كان بين الإنسان وخالقه ، بأن يفرده وحده لا شريك له بالعبادة . وحينما يكون هؤلاء المجرمون قادرين على نقض عهدهم مع الله تعالى ، فمن باب أولى أن يكونوا أكثر قدرة على أن ينقضوا العهود والمواثيق مع البشر . قال قتادة : تقدم الله إلى عباده

---

(١) تفسير القرطبى ، ص ٣٥٤١ . وانظر تفسير ابن كثير : ٢-٥١٠ ، ٥١١ .

(٢) تفسير القرطبى : ص ٣٥٤٢ .

(٣) البحر المحيط : ٥-٣٨٧ .

فى نقض الميثاق ونهى عنه فى بضع وعشرين آية(١) . وقال : « ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى خطبته : لا إيمان لمن لا أمانة له . ولا دين لمن لا عهد له »(٢). وقد جاء فى سورة الأنفال . مثلا عن كفار مكة ونقضهم العهود قوله تعالى: « **إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون** » (٣) . وكأن هذه الصفة السيئة التى عرف بها الكافرون تشمل جانب العقيدة فى نقضهم العهد مع الله تعالى ، وجانب السلوك أو الأخلاق ، حينما ينقضون ، فى معاملاتهم العهود والمواثيق . ويلاحظ أن التعبير فى الآية الكريمة عن نقض الكفار للعهود « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه » يفيد أن القوم يقدمون على نقض العهود والمواثيق عن عمد وسابق إصرار . إنهم ينقضون عهد الله وميثاقه من بعد توكيد كل من العهد والميثاق ، فليس القوم بالذين يرعون عهداً ولا ميثاقاً ، وبخاصة فى معاملتهم للمؤمنين حيث لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة .

والصفة السيئة الثانية : هى أن القوم « يقطعون ما أمر الله به أن يوصل » وذلك فى مقابل قوله تعالى عن أولى الألباب « والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل » وسبق أن عرفنا أن صلة الأرحام تأتى على رأس قائمة من ينبغى صلته من أنواع القرابات ، لأن الأرحام يتوسطون القريبين جداً من آباء وأبناء وإخوان ومن إليهم ، والبعيدين جداً ممن لا يمتون إلى الشخص بوشائج القربى . وإنما كانت العناية بهذه الفئة بالذات لأنها أول أنواع القرابات مظنة أن تقطع . والإسلام حريص كل الحرص على أن تكون العلاقات بين المسلم والأقرب إليه فالأقرب قوية . وحينما تكون العلائق بهذه الفئات غير منبتة ، فإنها تكون بمثابة التوطئة والتمهيد والمران لعلاقات أخرى متينة بالذين يبتعدون فى مجال القرابة عن دائرة أولى الأرحام .

---

(١) تفسير القرطبى ص ٣٥٣٦ والبحر المحيط : ٥ - ٣٨٥ . وتفسير الطبرى : ١٣-٩٤ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٣ - ٩٤ .

(٣) آية : ٥٥ ، ٥٦ .

والمعروف أن الإسلام إنسانى النزعة . فما أكثر ما قرر القرآن الكريم والحديث الشريف أن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب . جاء فى سورة النســاء . قوله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء . واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا » (١) . إن هؤلاء الحمقى المغفلين ، يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، وفى مقدمة ذلك أولو الأرحام . وقد جاء مثلا تهديداً لهؤلاء قوله تعالى فى سورة محمد : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم »(٢) .

إن قطع الحمقى ما أمر الله به أن يوصل من صلة الرحم ابتداء ، يعتبر رمزاً لسواه ، من قطع ما أمر الله به أن يوصل . فعلى سبيل المثال كان كفار مكة ، الذين يفخرون بالكرم ، يمتنعون عن إعطاء فقراء المؤمنين ما يمسك رمقهم من طعام . وإلى ذلك أشار قوله تعالى من سورة يس : « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ، إن أنتم إلا فى ضلال مبين »(٣) .إن هؤلاء الكافرين يرتكبون عن عمد وسابق إصرار عكس ما أمر الله تعالى ، من صلة الأرحام وما فى حكمها . ولا يخفى أن سوء خلق القوم وسلوكهم نابع من فساد اعتقادهم ، لأنهم يشركون مع الله تعالى سواه ، ولا يؤمنون باليوم الآخر ويكذبون الرسول الكريم وينكرون القرآن الحكيم .

ويلاحظ أن هاتين الصفتين ، الخاصتين بالكافرين تجيئان فى ذات النسق للصفتين المقابلتين لهما فى حق المؤمنين المتقين .

فإذا تحولنا إلى الصفة الثالثة فى حق الكافرين « ويفسدون فى الأرض »

---

(١) آية : ١ .
(٢) آية : ٢٢ ، ٢٣ .
(٣) آية : ٤٧ .

تبينا أنها ، لاتساع دائرة الفساد وشموله ، تكاد تقف فى مقابل عدد كبير من الصفات الخاصة بأولى الألباب ، الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ويصبرون ابتغاء وجه ربهم ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة وبعبارة أخرى كأن هذه الصفة الثالثة فى حق الكافرين « ويفسدون فى الأرض » تقع فى مقابل كون أولى الألباب يدرءون بالحسنة السيئة . إن أولى الألباب حريصون على جعل أعمالهم كلها صالحة . وإن الكافرين حريصون على جعل أعمالهم كلها سيئة . إن الصفات الأخرى الحسنة الخاصة بأولى الألباب ليس لها مكان ولا موضع بشأن الكافرين ، لأنهم يشركون مع الله تعالى غيره ، ولا يؤمنون بالبعث والنشور والثواب والعقاب . ويكذبون الرسول الكريم والقرآن الحكيم . « قال أبو العالية فى قوله تعالى : والذين ينقضون عهد الله . . الآية . قال : هى ست خصال فى المنافقين : إذا كان فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال . إذا حدثوا كذبوا . وإذا وعدوا أخلفوا . وإذا ائتمنوا خانوا ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وأفسدوا فى الأرض . وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الثلاث خصال : إذا حدثوا كذبوا . وإذا وعدوا أخلفوا . وإذا ائتمنوا خانوا »(١) .

وإذا كانت الجنة التى هى عقبى الدار ، من نصيب أولى الألباب ، فإن الجحيم ، التى هى سوء الدار ، من نصيب المجرمين . قال تعالى : فى حق هؤلاء : « أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » أما اللعنة فهى الطرد من رحمة الله تعالى والإبعاد . وحينما يطرد المجرمون من رحمة الله تعالى يوم القيامة ، فإن مصيرهم النار وبئس القرار .

ولما كان الإنسان إنما خلق كى يعبد الله تعالى وحده لا شريك له ، بمفهوم العبادة الواسع فى الإسلام ، وبذلك يكون خليفة لله تعالى فى الأرض كى ينال يوم القيامة ما يقابل أعماله الصالحة التى قام بها فى الحياة الدنيا

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢-٥١١ .

فقد عبر عن ذلك الثواب الذى يعقب العمل الصالح فى الدنيا بالقول إثر الحديث عن أهم صفات أولى الألباب « أولئك لهم عقبى الدار » ثم جاء تبيين هذه العقبى بالقول « جنات عدن » الآية . وفى المقابل جاء عن عقاب الكافرين القول « أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » وكأن المراد « ولهم سوء عقبى الدار » أما هذه العاقبة السيئة للكافرين فهى النار وبئس القرار .

ونحن إذا كنا نستطيع أن نقول إن فى قوله تعالى : « ولهم سوء الدار » بلاغة بالحذف ، والتقدير « ولهم سوء عقبى الدار » انتفاعاً من طريقة التعبير فى حق أولى الألباب « أولئك لهم عقبى الدار » فإنا نستطيع أن نقول الشىء نفسه بشأن ثواب أولى الألباب ، منتفعين من طريقة التعبير فى حق عقاب الكافرين فنقول : إن فى الكلام حذفاً تقديره « أولئك لهم حسن عقبى الدار » وإنما حذفت لفظة حسن بشأن أولى الألباب ، التى تقابل لفظة سوء ، لأن المراد بحسن العقبى أو العاقبة الجنة . وقد صرحت بذلك الآية الكريمة التالية التى وصفت نعيم أولى الألباب فى الجنة . وإنما حذفت لفظة عقبى بشأن الكافرين ، لأن هذه اللفظة سبق أن جاءت بشأن ثواب أولى الألباب . وقد جاز حذفها بل حسن حذفها لأن اتجاه الحديث فى الموضعين واحد . إنه الثواب أو العقاب ، الأعمال الحسنة أو السيئة التى قام بها أولو الألباب ، أو الحمقى المغفلون .

وهكذا يتبين أننا بصدد بلاغة بالحذف بشأن الإشارة إلى حسن عقبى الدار ، أى الجنة فى حق أولى الألباب ، وإلى سوء عقبى الدار ، أى النار فى حق الكافرين . والله تعالى أعلم .